مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (36) العدد (3)2014
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (36) No. (3) 2014

قراءة في قصيدة أدونيس (تاريخ يتمزق في جسد امرأة)

الدكتور حكمت عيسى*
نور مخلوف**

(تاريخ الإيداع 13 / 3 / 2014. قبل للنشر في 27 / 5 / 2014)

□ ملخّص □

لقد خلق الله الإنسان على صورته، والإنسان هنا يُقصد به الرّجل والمرأة على حدّ سواء، إلاّ أنّ المرأة في مجتمعاتنا ما زالت تعاني، وتبحث عن مخرج لتحقيق ذاتها، وتناضل من أجل إثبات حضورها الإنسانيّ الكامل.

ولما كانت هذه المجتمعات، مجتمعات دينيّة تحكمها الشرائع التي حدّدها الأسلاف، وفقاً لرؤاهم وفهمهم للنّص الديني، وتطلعاتهم السلطويّة، تحولت هذه المجتمعات إلى مجتمعات ذكوريّة همّشت المرأة، وتعاملت معها ككيان ناقص، وتابع للرجل. ورأى أدونيس أنّ هذه المجتمعات لن تتحرر من أغلال التخلّف ، إلا بتحرير المرأة.

لعل " تاريخ يتمزق في جسد امرأة " قصيدة تعبر عن رأي أدونيس بالدين والمجتمع والمرأة والفكر التقليدي، والتّراث الثقافي، وموقفه من السلطة الذكوريّة، والجنس.

الكلمات المفتاحية: المرأة . الرجل . الرّاوية

* أستاذ_ كلية الآداب والعلوم الإنسانية_ جامعة تشرين_ اللاذقية_ سورية.
** ماجستير_ قسم اللغة العربية_ كلية الآداب والعلوم الإنسانية_ جامعة تشرين_ اللاذقية_ سورية.

مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (36) العدد (3)2014
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (36) No. (3) 2014

Reeding of Adounis poem
(The History of ruptures in a woman s body)

Dr. Hakmat Essay*
Nor Mukluf**

(Received 13 / 3 / 2014. Accepted 27 / 5 / 2014)

□ ABSTRACT □

God created man in his own image, man here is intended both for men and women. but the women in our societies still suffer and look for a way to prove its full humanit arian presence.

As these communities, religious communities are governed by the iaws set by the progenitors according to their vision and understanding of the religious text and authoritarian aspirations. These communities turned into a masculine communities which marginalized women and dealt with as an entity minus continued to the man.

Adounis saw that these communities will not be liberated from the shackles of back wardness however, women`s emancipation.

The history of ruptures in a woman`s body), perhaps is a poem reflects the opinion of

Adounis religion and society, women and traditional thinking, cultural heritage, and his position of masculine authority and sex.

Keywords: Women . Man . Narrator.

* أستاذ– قسم اللغة العربية– كلية الآداب والعلوم الإنسانية– جامعة تشرين– اللاذقية– سورية.

** ماجستير– قسم اللغة العربية– كلية الآداب والعلوم الإنسانية– جامعة تشرين– اللاذقية– سورية.

مقدمة:

لقد دعمت الكثير من الأيديولوجيات النزعة الذكوريّة التقليديّة التي تؤكد تفوق الرّجل على المرأة، وجعلت من الذّكر المركز التي تدور حوله الأشياء، ومن ضمنها الأنثى. وما تزال هذه المركزيّة الذكوريّة إلى الآن رغم ما طرأ على وضع المرأة من تغيير منذ ظهور الإسلام، إلا أن المرأة بالرّغم من دعوات النّص القرآني إلى إنصافها، في كثير من المجتمعات العربية، ما تزال تعاني، وما زالت تُغيب، وتُهمش، وتُنتهك حقوقها.

ويؤكد أدونيس تغييب دور المرأة بشكل أو بآخر، وبالتالي تغييب نصف المجتمع عن انفعاله وتفاعله وفاعليته في تلك المجتمعات، وذلك لأسباب مختلفة منها التقاليد والأعراف، والنزعة الذكوريّة، والعصبيات، والعشائريّة، والقبليّة، واختلاف التأويلات، وانغلاقها، ودخول الأسطرة في معظمها. وهذا ما جعل المرأة إلى الآن أسيرة المخيلة الإسلاميّة التي ارتبطت بالعالم الآخر، فجغرافيّة الآخرة " في المخيّلة الإسلاميّة تضيئنا كثيراً في فهم جغرافيّة عالمها الدنيويّ. بل إنّنا لا نقدر أن نفهم هذه الثانية فهماً حقيقياً، إلاّ انطلاقاً من فهم الأولى. فالأنوثة، وفقاً للمخيلة التي ترتبط بهذه الجغرافيّة، الأنوثة بمعناها الدينيّ الأكمل لا وجود لها إلا في الآخرة، في الجنّة، وهي موجودة بوصفها، حصريّاً، متعة ولذّة: المتعة الأكثر إشباعاً، واللذّة الأعظم كمالاً "[1] ، ولذلك نجد أن المرأة لا تعني بالنسبة إلى العربي شيئاً ـخر سوى إنها جسد، ولا يُنظر إليها إلا بنظرة حسيّة، إذ حوّل الأصوليون المرأة إلى مجرد رحم، على اعتبار أن الحوريّة هي المرتجى الأخير في الجنة.

ورغم ذلك فإن مشكلة المرأة ليست مع النّص القرآني، بل مع التأويلات السائدة التي آثرت أن تحافظ على النظام الذكوري، ومازالت تعمل على ترسيخ أفكارها لجعل المرأة تابعاً للرجل، فهو رأس السلطة وسيد الموقف.

أهمية البحث وأهدافه:

تكمن أهمية البحث باختيارنا لقصيدة أدونيس (تاريخ يتمزق في جسد امرأة)

وهي من أعمال أدونيس الحديثة الصدور ولم يصدر إلى الآن، على حدّ علمنا، أية دراسة عنها.

ولأن المرأة هي محور هذه القصيدة، ولطالما عدّ أدونيس أن قضية المرأة من أهم القضايا التي يواجهها المجتمع، وعلى الفكر العربي أن يعالجها، فموضوع المرأة لم يعالج منذ عصر النهضة حتى اليوم إلا بشكل أقل جذرية وجرأة وعمقاً من المعالجات التي تمت في الماضي.

ولعل أدونيس لم يعالج وضع المرأة في أعماله النظرية بشكل مباشر وواضح، ولم يخصها بعمل من الأعمال، إلا أنه في هذا الديوان المؤلف من قصيدة واحدة، وهي قصيدة درامية، قد تكون أقرب إلى المسرحية الشّعريّة، ولكن الأهم أنها قراءة للتاريخ شعرياً، يؤرخ فيها لواقع المرأة العربية، ولماضيها، ومستقبلها، إنها قراءة للتاريخ بلسان حال المرأة، بوصفها حاملة إيديولوجية للسلطة السياسية، الذكوريّة، الدينية،...

[1] أدونيس. المحيط الأسود. الطبعة الأولى. دار الساقي، 2005.، ص98

منهجية البحث:

اعتمد البحث على المنهج السيميائي. يمكننا من خلال التحليل السيميائي دراسة النص من جميع جوانبه دراسة سيميائية تغوص في أعماقه، وتستكشف مدلولاته المحتملة، مع محاولة ربط النص بالواقع، ومايمكن الاستفاده وأخذ العبر منه.

قراءة في العنوان:

العنوان هو العتبة الأولى، التي نقف أمامها، وتحيلنا على مضمون الكتاب، ولعل العمل الإبداعي هو توسعة للعنوان، وفي حالات أخرى قد يستخدم العنوان بمعزل عن العمل الإبداعي، لتكون وظيفته تمييز العمل من غيره، وفي كلا الحالين يعمل العنوان على جذب القارئ وإثارة فضوله. فالعنوان هو العتبة التي يبدأ منها الاتصال مع النّص الإبداعي، فالشاعر (يتخذ من"العنونة" لا وسيلة للتسمية فحسب، وإنما غاية في ذاتها أي استراتيجية، هناك عناوين لا تقود القارئ إلى النّص فقط، بقدر ما تستضيفُهُ في عتباتها، وتطرح الأسئلة، ليبدأ حوار القارئ والنّص، الذي لا يمكن أن يشرع إلا بانفجار مجمرة الأسئلة)[2]، وهذا ما فعله بنا عنوان القصيدة،(تاريخ يتمزق في جسد امرأة) كعتبة أولى، يرافقه أيضاً الرسم التشكيلي على غلاف الكتاب، ليشكلا معاً منظومتين سيميائيتين مختلفتين صادرتين عن مقام إبلاغي واحد وهو (أدونيس)، بوصفه منتجاً للوحة التشكيلية، ومنتجاً لعنوان النّص.

وبوصفهما يشكلان العتبة الأولى لا بد من اكتشاف العلاقة بين المنظومتين اللغوية والتشكيلية، بغية إنتاج دلالة بالعتبة الأولى للنص_ المتن وما يرافقها، ومن ثمّ سيساعدان القارئ على استكشاف النّص وسبر أغواره ومكوناته الدلالية.

يستوقفنا في العنوان بداية كلمة (تاريخ) بانفرادها على السطر، وجعلها نكرة لإبرازها، وتخصيصها، وليدلل بها على التاريخ الديني بمعناه السلبي، وقد ألحقه بجملة فعلية،(يتمزق في جسد امرأة)، تبدأ بفعل (يتمزّق) الذي يحمل دلالة ضدية، لا بل سالبة، لمفهوم خطيّة التاريخ، فهذا التاريخ ليس تاريخاً تعاقبياً، متواصلاً، بل هو تاريخ مفكك، مبعثر، متقطع، يقرأه الشاعر من خلال المرأة، هذه المرأة التي لم ينظر لها عبر التاريخ العربي إلا باعتبارها جسداً، وما زالت إلى الآن تُعامل بوصفها جسداً، ومقراً للشهوات، ورمزاً للخطيئة. وهذا ما نقرأه في النّص الأيقوني[3] أو اللوحة التشكيلية على الغلاف، ليتمثل لنا التاريخ بالامتداد الأفقي، بلونه الأحمر، ليدلل على العنف، والقتل، والدم، الذي امتلأ التاريخ

---

[2] – د.حسين، خالد حسين. في نظرية العنوان / مغامرة تأويلية في شؤون العتبة النّصية. التكوين، 2007، ص178.

[3] – لم يكتف أدونيس بالإبداع الشّعري، والنقدي، بل دخل في عالم الفن البصري من خلال إبداعه بفن (الكولاج)، ويفضل أدونيس استبدال كلمة (كولاج) بكلمة عربية هي (الرقيمة)، والتي تدل على صفحة نجد عليها الكتابة والرسم واللون في الوقت ذاته، كما يعتمد هذا الفن على قص ولصق أشياء لا قيمة لها من خشب وورق ومواد أخرى من الطبيعة، ليكُون منها شكلاً له معنى.
منذ بداية التسعينيات أنجز أدونيس أكثر من مئة عمل من الرقيمات، وشارك في معارض عديدة لاقت نجاحاً كبيراً.

بهم. يتصالب التاريخ الأحمر مع الجسد الأسود الذي انفصل عن الرأس، ليدلل على المرأة باعتبارها عبر التاريخ، بقيت مجرد جسد، عّبر عنه باللون الأسود لتأكيد دلالته السلبية، والرأس يبدو لنا مبهم المعالم، تبعثره الأفكار، وتشوّهه الأقاويل، التي لطالما أقصته، وقيّدت إمكاناته، وحجبت حضوره الضروري لتوازن الحياة واكتمال مشهدها.

نلاحظ هيمنة النّص اللغوي على التشكيلي، بوصف العمل إبداعاً لغوياً، وليس إبداعاً تشكيلياً، من هنا لا يمكن فهم التشكيل اللغوي دون الدلالة اللغوية.

قراءة نقديّة في القصيدة:

يعرّف أدونيس عمله هذا بأنه قصيدة بأصوات متعددة، إلا أن هذه القصيدةَ أقرب إلى كونها مسرحيّة شعريّة، أو لنقل إنها غنية بالعناصر المسرحية، كتعدد للأصوات، ووصف لبعض المشاهد، بما فيها المشهد الدرامي الأخير، أما الأصوات أو الأبطال بحسب ظهورها فهي: الراوية، المرأة وطفلها، الجوقة، الرّجل، ونسمع أصواتهم جميعاً إلا الطفل، فهو غائب كصوت، ولكن على الرّغم من صمته يبدو حضوره جلياً وفاعلاً كدلالة.

ولا يقتصر الصمت على الطفل، بل يستحضره الشاعر مكوناً أساسياً في النّص، فإذا كانت الكتابة أثراً للصوت، أو القول، فإن الصمت غيابُ الصوت، و قطع للاستمرارية الشّعريّة، وتمزق التاريخ يتجلى عبر التمزق الشّعريّ، بين السواد والبياض، أو بين الصوت والصمت، بين الفراغ والامتلاء..،إنه ثنائيّة الحضور والغياب، والصمت يفسح المجال لاختلاف الأصوات، لتناوب الأصوات، فسحة للتبادل الصوتي، أو القول الشّعري، إنّ الصمت الذي يتخلل النّص هو شاهد وأثر في توقف النّص أو انقطاع النّص، وإعلان عن معاودته ، بصوت آخر، الصمت مكون من مكونات بنية النّص الدلالية والصمت انتقال الذّات الشّعريّة من مقام إلى آخر ضمن الوحدة الدلالية للنص. فالصمت كتقنية نصيّة شعرية هو تمزق لنسيج النّص بوصفه وحدة نصيّة حاملة للدلالة الكليّة المنبثقة عن وحدة النّص/ القصيدة.

الصمت هو لغة مختلفة تسمح بالقبض على ما هو خفيّ ومقنّع، والصمت قول دون كلام، فالنّص الأدونيسي صوتان: داخلي هو الصمت، وخارجي مسموع ومكتوب هو النّص. والصمت هو اللّغة التي لا يمكن الوصول إليها إلاّ عبر النّص المكتوب، الذي يسبقه والذي يليه، فإذا كان النّص الشّعريّ المكتوب نصاً منتهياً بوصفه مكتوباً، فإن الصمت هو نص مفتوح ولا منته، والنّص الشّعري المكتوب ما هو إلا انبثاق من الصمت (صفحة بيضاء صامته، وبالكتابة نزيل هذا الصمت)، فالكتابة الشّعريّة الأدونيسية هي خلخلة للصمت، ولبياض النّص.

أليس التاريخ بوصفه أحداثاً وحضوراً، صوتاً أو أثراً لصوت؟!! فالتاريخ يترك أثره على الزمن، بمعنى آخر، يُفعلّه، كما تفعل الكتابة على بياض الورق.

ولعل وظيفة هذا الصمت، في القصيدة، وظيفة شعرية سردية من جهة، لأنّه يشارك مباشرة في تقدم السرد، والخلق الشّعري، وبناء النّص. ومن جهة أخرى يكتسي وظيفة تأويلية حينما يعمل كعنصر مكون للنص الأدونيسي، ويسهم في تشكيل معنى النّص الذي يبدو أنه مبعثر ومتناثر الشظايا، في حنايا النّص.

الكتابة الأدونيسية هنا هي كتابة يتناوب فيها السواد(الكتابة الشّعريّة)، والبياض(الصمت)، والصمت هو توقف لحظي زمني عن استمرارية الكتابة الشّعريّة، وهنا يستحضر الصمت فكرة الانفتاح واللامنتهي، بينما تفرض اللّغة الحدود المادية للكلمة، والحدود المرجعية للمعنى.

وإذا كان المتن الأدونيسي هو القول/الدلالة، فإن الصمت هو المسكوت عنه، إنه امّحاء النّص، دون أن يعني ذلك غياب أثره، فالصمت هو حضور النّص كأثر، بمعنى آخر، يدخل الصمت في نسيج النّص، كعنصر رابط، ويطلق

القول الشّعري ضامناً بناء معنى النّص، فالصمت يتمفصل مع القول الشّعري الأدونيسي ضمن علاقة بنيوية يتحدّد كل منهما بالآخر، والصمت هو حضور للغة موجودة بالقوة، أي لم يتم تفعيلها، وما زالت كامنة.

يبدأ أدونيس قصيدته باستهلال، لم يحدّد صوته، بل اتخذ منه مدخلاً يوجه القارئ من خلاله على كيفية قراءة هذه القصيدة، وتوجيهه لفهم السياق، من خلال تنبيهه عما تدور القصيدة في فلكه، فالاستهلال (مفتاح إجرائي وتوجيهي لتقييم الكتاب عامة، وفهم النّص وتقييمه من طرف القارئ على وجه الخصوص)[4]، وما حاول أدونيس إيصاله للقارئ هو استحضاره لقصة هاجر وابنها إسماعيل، مهيئاً القارئ للدخول في الجو العام للقصيدة، التي تعتمد على قراءة التاريخ شعرياً، بلسان امرأة، هي زوجة نبي وأم لنبي، وعلى الرّغم من ذلك فقد نفيت لمجرد تمرّدها على واقع حالها.

استحضر شخصية هاجر، ليكشف من خلالها واقع المرأة، ويقرأ التاريخ بلسانها (هذه سيرةُ امرأةٍ عبدةٍ وابنها/ نُفيت، لا لشيءٍ سوى أنّها / كسرت قيدها. ويُحكى/ أنّها زُوِّجت لنبيٍّ،/ وأن ابنها/ صار من بعدها نبيّا. ولكن / لم يجيء في تعاليمه / أنّها حُرِّرت.)[5]

إن دلالة كلمتي (سيرة، يُحكى) تقترن بالحكاية وبالتاريخ، وتذكّرنا بالحكواتي، فاستعاد قصة هاجر لتكون صوت المرأة العبدة التي حكم عليها منذ البداية بالنفيّ، ومن خلال سيرة هذه المرأة يحكم على التاريخ كنسق إيديولوجي واجتماعي وأخلاقي.. وبخروجها عن هذا النّسق كان رد المجتمع عليها بالنفي، ولم تتحرر على الرّغم من كونها زوجةً لنبي وأماً لنبي، ولم تستطع التعاليم التي جاء بها زوجها وابنها أن تحرّرها أيضاً، ولم تستطع أن تردّ المصير الذي رسمه لها هذا المجتمع المحكوم بمفاهيمه الدينية.

هذا الاستهلال هو تحضير القارئ للدخول إلى عالم هذه القصيدة، هذا العالم الذي تداخل فيه صوت الماضي مع صوت الحاضر، ليشكلا صوتاً واحداً، تمرّد حيناً، ورضخ أحياناً كثيرة، حلم حيناً، وغاب مع الأماني أحياناً كثيرةً، صوت خنقته مشنقة المجتمع بحبلها الذكوري.

أما **الرّاوية**، الصوت الذي ينقل صوت رواة التاريخ، (... إنَّها امرأةٌ: مرّةً قيدُها طفلُها. مراراً / قيدُها زوجُها. / سوف يُروى لكم / ما تُوُقِلَ عنها، وما ينسبُ الرّواةُ إليها. / هكذا، / ليس ما سيُقال بياناً ولا مسرحاً./ إنَّهُ امرأةٌ حيّةٌ– ميتةٌ.)[6]

إنها امرأة تحكمها القيود، فأمومتها قيد يربطها اجتماعياً وعاطفياً بطفلها، وزواجها قيد، تحكمه الأعراف الاجتماعية، والتقاليد، والتشريعات الدينية، والواقع الذكوري، تلك القيود التي حولتها إلى امرأة حيّة/ميّتة، وكأنّها تمثّل في آنٍ واحد ثنائيّة الحياة/ الموت، فهي حيّة بقدر ما تحقق من حرّيتها، وميّتة بقدر ما تخضع لتلك القيود وتستسلم لها. إن استخدام الرّاوية للمبني للمجهول، إحالة إلى التاريخ المتناقل دون تدقيق، فبقول الرّاوية (يُروى) فيها تشكيك وعدم مصداقية، وكأنّها تضع التاريخ عرضة للتصديق أو الرّفض، بالأحرى للتشكيك، فإذا كان الرواة بالعادة يتخذون موقفاً وسطياً، فإنّ صوت الرّاوية هنا يحاول أن يكون وسطياً، إلا أنه لم يلتزم الحياد أو لم يكن صوتاً سلبيّاً، وكأن هذا الصوت صوت أنثوي، ففي أحيان كثيرة نراه معنّياً بما يحدث، أو_ بأقل تقدير_ ساخطاً ومستهجناً لما أتى في صفحات

---

[4] بلعابد، عبد الحق. عتبات (ج جينيت من النّص إلى المناص). تقديم: د. سعيد يقطين، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، ط1، 2008، ص119

[5] أدونيس. تاريخ يتمزق في جسد امرأة. الطبعة الأولى. دار الساقي، 2007، ص7.

[6] المرجع السابق. ص8–9.

التاريخ، وما يدوّن الآن في صفحات الواقع (إنها امرأةٌ / نصفها رَحِمٌ وجِماع / والبقيّةُ شَرٌّ. / هكذا رسموها. / هكذا وصفوها. / زمنٌ_ عنكبوتٌ / يجرُّ خطاهُ على وجه قيثارةٍ.)[7]

وكأن الرّاوية هنا عين أخرى للتاريخ، تلك العين التي تنقل التاريخ لتُعرّيه، وتكشف سلبياته، هذا التاريخ الذي همّش المرأة، وشيّأها، ولم يجد فيها إلا جسداً يُلبي رغبات الرّجل، ووسيلة للإنجاب، وفي ما عدا ذلك فلا يزال يُحمّلها الخطيئة الأولى، التي وسمتها بالشرّ، فما كان على الرّاوية إلا أن ينتقد هذا التاريخ الذي استلب دور المرأة، وغيّبه، فأتت أحداثه متداخلة، متشابكة، يحكمها زمن هش، لا يمثل الزمن الحقيقي، بل يمثل زمناً هم من صنعوه، وهو زمن محكوم بالسّماء، ويدعونا الرّاوية للتحرر من موروثنا التاريخي هذا، الملطخ بالدم، والرافض لأي اختلاف.

لم يكتف الرّاوية بعدم الالتزام، بنقل الأحداث كما وردت في كتب التاريخ، وبخروجه عن دوره النّقليّ، بل توصّل في كثير من الأحيان إلى نتيجة أو حكمة، أو موقف، تجاه ما رسمه الدين والمجتمع، صورةً للمرأة.

(سأكرّر ما قيل : ما خبرته الحياةُ وتعرفه الأمثلة، / سأكرّر ما قيل : قتلٌ / ختن فرجٍ. وقتلٌ / أن يُحَوّلَ فرجٌ إلى فُرجةٍ_ / تتخاصمُ فيها الغيوبُ، وتنهزمُ الأسئله. / كلُّ مختونةٍ جُثّةٌ./ (صمت))[8]

يعود الرّاوية ليؤكد ثنائيّة الحياة/الموت، التي حكمت المرأة عبر التاريخ، إلا أن صوت الموت يتعالى في هذا المقطع الشّعري، لينقل لنا الرّاوية تاريخ المرأة الذي أصّلته تقليديّة المجتمعات العربيّة، ذاك التاريخ الذي حكم على المرأة بالقتل، وهذا ما يصل إليه الرّاوية بعد أن رَوى ما قاله التاريخ، وتقوله الحياة، مؤكداً أن كل مختونة جثة، هذا التاريخ وتلك الحياة حوّلا المرأة من امرأة حية، إلى جثة، من امرأة طبيعية وحرّة، إلى امرأة لا حياة فيها.

وفي رفض الرّاوية هذا يغامر في نقل وقائع لطالما عُتم عليها، أو سقطت من التاريخ بسوط السلطة الدينية منها أو السياسية، أو الاجتماعيّة، فلطالما كان تاريخنا تاريخ رواية، إلا أن هذا الرّاوية مطوق بقيود كثيرة تعمل لخدمة السلطة بجميع أشكالها، المخيّمة على مجتمعاتنا العربيّة حتى اليوم.

(لذّتي أنّ رملي / يتحدّث ذئبٌ بين كُثبانهِ، في الطّريقِ إليهِ، / وتسمع شاةٌ. / لذّتي أنّ هذي الطّريق تُغامرُ مقطورةً بأحلامها. / (صمت))[9]

إن قرار الرّاوية جاء تحدياً لذئاب أفسدت حقائق التاريخ، وعملت على صنع تاريخ يتناسب ومصالحها، وفي تحديه هذا يواجه العقليّة التقليديّة التي ترسخت بفعل هذا التاريخ الديني، وبالرّغم من كل الصعاب فإن الرّاوية قرر التحديَ، مسلحاً بالأمل، ومسكوناً بالأحلام، التي تشعره بالنشوة لمجرد الخوض في طريق تحقيقها.

لقد حمّل أدونيس الرّاوية أعباء الخوض في التاريخ، لقول ما سُكت عنه، وكأنه يحمّله مسؤولية قراءة التاريخ قراءة ثانية، ونقد ثغراته، وإسقاط القداسة عن وقائعه وأحداثه، وهذا ما سعى إليه أدونيس دائماً، سواء بأعماله الشّعريّة، أو النظرية.

أما بما يخص **المرأةَ وطفلها**، متمثلة بشخصيّة هاجر وطفلها إسماعيلَ، فقد تعددت أدوارها، أو لنقل: إنها شخصية ظهرت بأصوات مختلفة، منها الصوت المتمرّد، والصوت الحالم، والصوت المحكوم والراضخ للحكم، وصوت الأمومة، وصوت العاشقة... إلا أن هذه الأصوات جميعاً تجتمع في شخصيّة واحدة هي امرأة تبحث عن الحبّ، والحرّيّة، إنها تبحث عن رجل يؤمن بإنسانيتها، وحريتها، ويعترف برغباتها، إنها تبحث عن الرّجل الحقيقي، الرّجل الذي

---

[7] **المرجع السابق. ص13.**

[8] **المرجع السابق.. ص42.**

[9] **أدونيس. تاريخ يتمزق في جسد امرأة، ص87**

يؤمن بالحياة، (قمرٌ، سِرُّهُ العذبُ يجتاحني./ قمرٌ، يتدفَّقُ ملء خلاياي. لا عورةٌ ولا زَلّةٌ. / قمرٌ نطفةٌ. / قمري خالقي. / قمرٌ، لا لجِنٌّ / قمرٌ، لا لربٌّ. / قمرٌ رحمةٌ. رحِمٌ حُرّةٌ. / قمرٌ، بين ثدييَّ، في شفتيَّ، وبين ثيابي، وفي خُطواتي / قمرٌ، تحت جلدي / قمرٌ أستعيذُ بهلاَّته وهالاته / أتوحّدُ فيه، وأُصالحُ نفسي فيه / قمرٌ كان جُرحاً/ وسيُصبحُ يوما ملاكاً./ قمرٌ من حجر / يقرأ الحبّ فيه / وجوه البشر / قمرٌ للأنوثة، للجنس، للنّزوات، وللصّبوات / قمرٌ لا لأرضٍ ولا لسماءٍ، / قمرٌ للحياة./ (تحتضن طفلها) / غير أنّيَ / لا أرى الآن حوليَ جاراً، / سوى عنكبوتٍ.)[10]

والقمر هنا هو رمز الذكورة والخصوبة، رمز الحبّ، إنه الرّجل، الذي يمثل دورة الحياة، إنه الرّجل الحقيقي الذي تبحث عنه المرأة، أو الذي تحلم به، هو الرّجل الذي ترغب في التوحد فيه، إنه التوحد الكوني الذي يمكّنها من أن تجد نفسها فيه، وما دلالة اكتمال القمر، إلا دلالةٌ على تحول الحُلمِ إلى حقيقة، وفي رحلة بحثها عن هذا الرّجل الكوني، أو الرّجل الحقيقي، لا تجد حولها سوى عنكبوت يشي وجودُه بأن ما تبحث عنه غيرَ موجود، وفي هذا المشهد الشّعري ومن بدايته يُظهر لنا الشاعر وجود الطفل إلى جانب أمه، وبعد حين، وفي لحظة اقتراب المرأة من الحقيقة، تحتضن طفلها، لعلَّها تحس بوجودها، أو لتفرّغ ما لديها من حنان وحب، بطفلها، الذي لم تجد سواه لتهبه هذا الحبّ بعد رحلة طويلة من البحث عن الرّجل الكامل، إن وجود هذا الطفل_ على الرّغم من صمته_ له دلالة كبيرة، تظهر إيجابيتها حيناً، وقد تكون سلبية حيناً آخر، إلا أن وجوده مقرون بوجود المرأة، فالأمومة جزء لا يتجزأ من وجودها.

وها هي الآن تعبّر عن غربتها، وعن حزنها لأن ابنها لم يكن نتاج حب وانسجام بينها وبين زوجها، وكم تمنت لو أن هذا الطفل كان حصيلة حب وصداقة، ولو أنها كانت أرتميس (إلهةَ الصيد والبرية، وحاميةَ الأطفال، وإلهةَ الإنجاب والعذرية، والخصوبة) ، تمنّت لو أنها تنتمي للطبيعة، ولا تتقيد بقيد الزواج، بل تعيش حرّة وتنجب طفلاً من توحدها بهذا الكون، ليكون جزءاً منه، هي من رماها زوجها في مكان قفر، مع طفلها، استجابة لأمر الله، وبين استجابته لربّه، وتعبده، وصلاته، وبين ممارسته للزنا، تقع المفارقات بين الممارسات الدينية، والحياة التي يعيشها في الخفاء،(أهو الآن يُصغي إلى ربّه، أم يُدشّنُ أعضاءهُ / بدمٍ آخرٍ؟..)[11]، وتتساءل إذا ما كانت هي وطفلها أُضحية (أيّهذا الهواء، رسولي إليه: / ليس في رأسي الآن غير الخراف، وغير سكاكينها)[12]

ولا تجد أمامها من خلاص على هذه الأرض، وشبح الموت يلاحقها هي وابنها، وتستسلم المرأة لهذا المصير(لا أعوذ ولا أستعين)[13]، ولعلها هنا يئست حتّى من رحمة الله، أو أنها استسلمت بشكل كلّي لقدرها، ويظهر هنا تناص واضح مع القرآن الكريم، يُستكمل بقصة النبي موسى وقدرته على السحر التي حولت العصا إلى ثعبان*، لتعبّر من خلالها عن عجزها،(ليس جسمي عصاً كي يصير إلى حيّةٍ..)[14]، ويستحضر(الكبش) في هذا المقطع الشّعري أيضاَ، قصة النبي إبراهيم عندما افتدى ابنه إسماعيل بالكبش*، ويزداد يأسها وتمرّدها على السّماء عندما وجدت نفسها هي وطفلها في هذا المكان القفر، بلا ماء ولا كلأ، فتتكفئ على نفسها، ويسود قلبها لرؤية طفلها يتهالك من الظمأ، وتستسلم للبكاء، يأسا من رحمة السّماء (أَتَغلغَلُ في عزلتي، تحت جلديَ، في الصَّمتِ، / في نعمة البكاء.

---

[10] **المرجع السابق. ص11-10.**

[11] **أدونيس. تاريخ يتمزق في جسد امرأة. ص16.**

[12] **المرجع السابق. ص16.**

[13] **المرجع السابق. ص17.**

***وردت هذه القصة في كل من الآية 107 من سورة الأعراف، والآيات 17-18-19-20 من سورة طه، والآية 32 من سورة الشّعراء.**

[14] **المرجع السابق. ص17.**

/ وأُزحزحُ هذا الثّقيل الفضاء.)[15]، وها هي تُشكّك بصحة التعاليم الدينيّة التي سادت في المجتمع، وأعلت صوت الذكورة، والسلطة الأبويّة، وتخشى أنها تدفع ثمن الخطيئة الأولى، (أتراني أسأل تُفّاحةً؟)[16] ، تلك الخطيئة التي مازالت تدفع ثمنها حتى الآن، بالسجن الذي نُفيت إليه، سجن بقضبان من التعاليم، وجلاده الذكوري، الذي ألغى إنسانيّة المرأة بسلطته الأبويّة. وفي بحثها عن التّغيير تعلن انتماءها لرغباتها، ولحرية جسدها، فالقداسة الوحيدة التي تنتمي إليها، هي حريتها، والتمرّد على الميراث الملآن بالخرافات، الذي سيطر على عقول مجتمعاتنا، وظلمها،(... كتابٌ / يتعهّد جسمي: أتنقّل في معجم الحوض من آيةٍ إلى آيةٍ. / وتقول السّماء / لا يحقُّ لمثلي أن تعشق الأنبياء.)[17]، آيات حكمت عليها بالعزلة، وشرعت لها الوحدة، وكبت الرغبات، وعدّت العشق خطيئة، امرأة سُلبت حقوقها، وأُلغيت إنسانيتها، وشُوّهت آدميتها، ليس لها إلا أن تسخط على هذه التعاليم، وعلى تلك الكتب التي حكمتها، كما حكمت كل شيء في هذه الحياة، وقالت البداية والنهاية، وأعطت للحياة تكويناً واحداً ونهائيّاً لكل الأزمنة، وشرّعت كل شيء فيها وحدّدت دوره ومساره، وعواقب ما إذا خالف المسار الذي حدّد ورسم له،(كُتُبٌ، قُدّست! / لا تقولُ سوى ما يقول الغسق / في القعود، النّهوض، وفي الكون والجسم، في الخبز / والخمر والماء / في العلماء وفي الشّعراء، وفي الليل والباه / والجنس، قولوا: / كيف لا تيأس الشّمس، لا ييأس الفجر والعقل والقلب مما / يعلّم هذا الورق؟)[18]، سؤال يحمل في داخله الجواب، أما صمتها الذي انتهى به المشهد، فيفتح الأفق أمامنا جميعاً للتشارك في سبر أغوار هذه التساؤلات، وما وراءها، وما أمامها، وما سبب استدعائها، إنها تساؤلات موجهة إلينا، كيف لا نيأس مما دوّن على هذا الورق، الذي نصبوه وصيّاً على حياتنا، فجمّدها، وأخرها، وقيد العقل والإبداع فيها.

ففي هذه القصيدة يُحمّل أدونيس المرأة مسؤولية، نقل قضيّتة الأولى، تلك القضيّة التي حملّها ما كان، وما هو كائن في مجتمعاتنا العربية، ألا وهي إقحام الغيب في أحوال الأرض وشؤونها، وسيطرته على العقل العربي، فكان قيداً يطوق عنق الحرّيّة، والإبداع، والفكر. ولا يبحث أدونيس في ذلك، لتغييب النّص الديني، بل نادى بالفصل بين السّماء والأرض، بمعنى فصل الدين عن الحياة، ولا يوجد في هذا التقديم، كفر أو إلغاء للغيب، بل هو دعوة أو رغبة في بطلان سيطرته على الأذهان، والانتهاء من فكرة أن الإنسان لا دور له على هذه الأرض إلا تمجيد السّماء، والعمل على تحقيق إرادتها، حين قالت كل شيء، في نص، احتكر الحقيقة، باعتبارها الحقيقة الواحدة، والكاملة، والنهائيّة، والمطلقة، والمرجعية الأولى والأخيرة التي تحكم عقولنا. علَّ في ذلك معاودة لدور العقل الطبيعي، في البحث والاستقصاء، وكشف حقائق جديدة، تفتح أفق الحرّيّة أمام العقل والقلب الإنساني.

يكاد لا يخلو مشهد من المشاهد التي تظهر فيها المرأة، من التأكيد على يأسها وتمرّدها على السّماء، وتعاليمها، (... وما ذلك / الغيب يغزو / رؤوس بني آدم؟)[19]، (... لم أمجّد كتاب الخطيئة..)[20]، (لا كتابٌ. خطواتي كتابي، لغتي خطواتي..)[21]، (... ويا ذلك الكتاب الذي يخنق الأنوثة..)[22]، (... السّماء حجاب عليَّ..)[23]، (ما أقول لنفسي،

---

[15] المرجع السابق. ص23.

[16] المرجع السابق. ص25.

[17] المرجع السابق. ص31.

[18] المرجع السابق. ص31.

[19]أدونيس. تاريخ يتمزق في جسد امرأة. ص35.

[20] المرجع السابق. ص43.

[21] المرجع السابق. ص48.

[22] المرجع السابق. ص51.

[23] المرجع السابق. ص54.

ولتلك السّماء التي استعبدتني تعاليمها؟)[24]، (لا نشوةٌ، لا كتاب / غير هذا التراب.)[25]، (جسدي كون حبٍّ / كلّما سلكت ناره دربها، / قتلت ربَّها)[26]، (آه ما أجمل الحياة وسحقاً لجنّتها المرجأه)[27]. تدور هذه الشواهد كلها حول فكرة واحدة، هي رفض المرأة لهذا الغيب الذي لم تجد نفسها في تعاليمه، بل عدّتها قيداً أطبق الخناق عليها، ولم تعترف بأنوثتها، بل استعبدتها، وهمّشتها، وعزلتها عن الحياة وعن نفسها، ورغباتها، فما كان أمامها إلا أن تستاء وترفض كل ما ما جاء نقلاً عن هذه السّماء، أي كل ما جاء في الكتب السماوية (.. ويا ذلك الكتاب الذي يخنقُ الأنوثةَ، / يا غلمة الأحد الجمعة السَّبت، ماذا، ما الذي ينبغي؟ ..)[28]، (إنّه السَّبتُ يسبتُ عقلي؟ ساعديَ؟ ولكن / أيسبتُ قلبٌ فاتحٌ نبضهُ على كلّ شيء؟ / أحدٌ_ أتخيّل كيف أدّبرُ أمري / لألاقي شخصاً تخيّلتهُ. / جمعةٌ_ قاب قوسين من ظُلمةٍ ..)[29]، إن إحساسها بالظلم، عمّق هذا السخط والتمرّد على السّماء، تلك السّماء التي لم تنصفها، بل شيّأتها، وحصرت وجودها بتحقيق متع الرّجل، وبالإنجاب (زعموا أنني خُلقتُ لكي لا أكون سوى ذلك الإناء / لاحتضان المنيِّ كأنّي مُجرَّدُ حقلٍ وحرثٍ: / جسدي من غُثاءٍ وحيضٍ / وحياتي تجري / مرَّةً، صرخةً، مرَّةً مومأه. / ولماذا إذا يكتبُ الكونُ أسرارهُ / بيدي عاشقٍ؟ / ولماذا إذاً يُولدُ الأنبياء / في فراش امرأه؟)[30]

إن فعل (زعموا) يقودنا إلى أمرين: الأمر الأول يتعلق بالتأويلات التي رافقت تلك النّصوص السماوية، وحلت مكانها، مدعيّة صحة ونهائيّة هذه القراءة، ووفقا لذلك كانوا أوصياء على التاريخ، الذين أسسوا من خلاله السيطرة على العقول وبالتالي السيطرة على المجتمع والسلطة.

والأمر الآخر يتعلق بالتشكيك في عدم مصداقية تلك التأويلات، فقد يكون ما زعموه باطلاً، وقد حكمته ظروف تاريخية، وسياسية، واجتماعيّة، وأهداف سلطوية، من أهمها السلطة الذكوريّة البطريركيّة.

ولتكريس هذه السلطة الذكوريّة كان لا بد من تهميش المرأة، وتجريدها من إنسانيتها، وذلك بتحويلها إلى إناء، هذا الإناء له دلالة سلبية وغير فاعله، هو يعبر عن الاحتواء، والتلقي السلبي. إنها امرأة تتأرجح حياتها بين وجودها الإنساني، وبين إحساسها بإنسانيتها المسلوبة، فحياتها تجري مرة صرخة، والصراخ ذو دلالة إنسانية، ومرة مومأة والمومأة لها دلالة غير آدميّة، وكأنهم وصّفوها بالنعجة، الذي يقتصر وجودها على الطاعة، إضافة لما تنقله هذه الدلالة من تشييء للمرأة وتغييب لمشاعرها ورغباتها، ولحضورها الإنساني.

كل هذا دفعها لأن ترفع تساؤلات كبيرة، وكونيّة، رداً على من زعموا هذا المصير لها، تلك التساؤلات التي تستدعي أجوبة مفتوحة، تفضي إلى تساؤلات أخرى لا تنتهي، وبتساؤلها حول مغزى أن تكون زوجة وأماً للأنبياء، يحيل إلى كون المرأة هي أصل الكون، هي الأم التي أنشأت رجالاً صنعوا التاريخ، ونقلوا رسالات سماوية، أسست لمجتمعات، وحضارات ما تزال قائمة حتى الآن. إن من يبني أجيالاً، يبني الحياة، وبالتالي فهو أصل الحياة، ومن هنا جاءت المرأة الكون، والأنثى الأصل. ولا يغيب عن أحد أن التساؤل من أهم ما يميز شعرية أدونيس، والسؤال الأهم الذي يسأله في هذه القصيدة يبحث من خلاله عن ماهيّة الذّات وتفاعلها مع الآخر والمجتمع، وتطورها عبر التاريخ،

---

[24] **المرجع السابق. ص62.**

[25] **المرجع السابق. ص67.**

[26] **المرجع السابق. ص69.**

[27] **المرجع السابق. ص80.**

[28] **المرجع السابق. ص51.**

[29] **المرجع السابق. ص56.**

[30] **المرجع السابق. ص93.**

هذا السؤال ينبعث من الرّغبة بالتّغيير والتحول، لذلك يحمل في طياته ما مضى، وما هو حاضر، ويستطلع ما قد يأتي، في جو من التمرّد والرفض، سؤال يستدرج تساؤلاتٍ عديدة، تتحدى الوعي السائد، والثقافة النمطيّة، وتبعيّة الأصول، سؤال أدونيس يطمح لخلخلة قيم المجتمع الحاليّة، والتأسيس لعلاقات جديدة بين الإنسان والمقدس، علاقات جديدة تمنح الإنسان الحرّيّة الكاملة للتعبير عن هواجسه وتساؤلاته الكونيّة وشكوكه، ولعل حضور المرأة الطاغي في هذه القصيدة حمّلها أعباء هذه التساؤلات، تساؤلات تنبض بالشك، والحيرة، والتحدي، والاستياء من تبعيّة ما جاءها من سيطرة هذا المقدس على حياتها، بتكريسه للسلطة الذكوريّة، التي قيّدت المرأة وسيطرت عليها، وتحكّمت بمصيرها، تنافياً مع الطبيعة الإنسانيّة، التي تستدعي التساوي بين الرّجل والمرأة إنسانيّاً، وهذا ما دفع المرأة عبر التاريخ إلى أن تناضل للحصول عليه، وذلك نابع من إحساسها بالظلم، واللا مساواة، إنها تتمرّد على واقعها وتجادل السّماء، أو الغيب، أو المجهول بحثاً عن أجوبة لن تحصل عليها من الأرض (هل أقولُ للوني تغيَّر؟ / ولماذا / ميَّز اللّهُ ما بين أبنائه؟)[31]

(... ما أقول لأسلافي الآن؟ إن كان ثمّة ربٌّ / أَحَدٌ واحدٌ، فلماذا / لا يقول لأبنائه: سواءٌ / كلّكم؟ ولماذا / يقول لأولئك: اقتلوا هؤلاء؟ لماذا / يفضّل هذا على ذاك؟ يُعطي لهذا / بيت ذاك؟ يُتيحُ لهذا / أن يَسودَ، ويأمُرُ هذا / أن يكون له خادماً وعبداً؟)[32]

قد تكون في خطابها هذا تُشكّك فيما جاء نقلاً عن السّماء، فما ساد على هذه الأرض لا يمكن أن ترضى به السّماء، إنه تشكيك بالقراءات الأولى للنصوص السّماويّة التي ضمّت الحقيقة المقدّسة، الثابتة، والنهائيّة، ومن ثمّ سيطرت هذه القراءات على العقول والمجتمعات العربية، لدرجة حجبها للنص الأصل، وربما يأتي تمرّد هذه المرأة على ما جاء في هذه القراءات وما فيها من إجحاف بحق المرأة، لصالح الرجل الذي سيطر على المجتمع، ووفقاً لذلك كُتب التاريخ وتمّت قراءته تلبيّة لهذه السلطة الذكوريّة بأشكالها كافة، وتكريساً لسيادتها، وتثبيتاً لشرعيّتها المطلقة، على أنّها وريثة السّماء في الأرض، والوصيّة على تحقيق إرادتها. وهذا ما يمثّل القيد الأول والأساس الذي حكم المرأة. هذا القيد الذي غرّبها عن زوجها، وحرمها متعة الحبّ، وحوّلها إلى آلة للخدمة، وأداة للمتعة والإنجاب بيد الرّجل، هذا الرّجل الذي تجاهل رغبات زوجته، بل لم يعترف بها، استجابة منه لإرادة السّماء كما صوّرها الشرع والتاريخ، والتزم بها المجتمع، (.."جسدي ليس مني" تقول تعاليمهم. / أتقلَّبُ فيه، / واهتديتُ، وتُهتُ، صلّيتُ، وانسقتُ / فيه من فضاء إلى آخر / فلماذا تقول تعاليمهم جسدي ليس منّي؟)[33]، هذه التعاليم التي غزت رأس الرّجل واحتلّت عقله وفكره، حرمته متعة الحبّ الحقيقيّ، فالحبّ لا يكتمل إلا بالحضور الكامل للجسد والروح، بين الرّجل والمرأة، ولأن الرّجل لا يعترف برغبات المرأة ولا بوجودها الرّوحيّ، مختصراً وجودها على أنها وسيلة لإشباع رغباته، غير مبالٍ بمشاعرها، وطبيعتها الإنسانيّة، هذا ما أثار سخط المرأة، وحرّك آدميتها نحو التمرّد، فمن شاركها حياتها لم يشاركها حبّها، ولم يستطع أن يراها كوجه آخر للحياة، بل رآها كما علّمته الكتب السماويّة أن يراها، وكما أراد أسلافه أن يراها، مجرّد جسد لخدمة، وتلبية رغبات الرّجل، إنه رجل مسكون بالماضي، يعيش تبعاً لما قُدّر له، وما رسمته الكتب طريقاً لحياته، تلك الطريق التي اتخذت مساراً واحداً ونهائياً، يبدأ بالسّماء، وينتهي بها، فما حياته إلا تكريسٌ لإرادة الله على الأرض. ونظراً لذلك نتساءل: إلى أي مدى يمكن أن نوّصف الرّجل هنا بأنه مستلب من قِبل السّماء، كما صوّرته كتب التاريخ، ليستلب هو بدوره إنسانيّة المرأة ووجودها ككيان حرّ ومستقل، له رغبات، وأحلام، وحضور فعّال في بناء المجتمع. ولعلّ المرأة في

---

[31] **أدونيس. تاريخ يتمزق في جسد امرأة. ص46.**

[32] **المرجع السابق. ص124-125.**

[33] **أدونيس. تاريخ يتمزق في جسد امرأة. ص110.**

هذه القصيدة تُظهر تمرّداً لا يقتصر عليها فحسب، بل تدعو الرّجل ليشاركها هذا التمرّد، ويعود معها إلى الفطرة الأولى، حيث تتلاشى القيود والشرائع، وتسود لغة الحبّ، والرّغبة، في الكتاب الوحيد الذي تعترف به المرأة، كتاب الطبيعة. (أيُّها الذَّكرُ المتربّعُ في معجم الوحي، من أنت؟ / إخلع ثياب السّماء، وجئني / في ثياب الطَّبيعة، / لا نشوةٌ، لا كتاب / غيرُ هذا التّراب)[2]

ومن القيود الأخرى التي تندرج تحت القيود الاجتماعيّة والعاطفيّة هي قضيّة الأمومة، وأما القيد فيتمثل بالطفل، الذي حكمها عاطفيّاً وأخلاقيّاً واجتماعيّاً، إلا أن هذا الطفل لم يكن ثمرة حب، بل كان نتيجة رضوخ واستسلام لسلطة ذكوريّة، جرّدت المرأة من إحساسها، وأنوثتها، وحكمت عليها بالعزلة والنّفي هي وطفلها، الذي لقي المصير نفسه الذي قُدّر لأمه العبدة، التي لم تستطع أن تردّ قدرها عنها، ولم تجرؤ على تحديه، لتجد نفسها أمام تحدٍّ جديد أمام أسئلة ابنها المنتظرة، فها هي تظهر في أحد المشاهد وهي تحضن طفلها، تتفكر في أسئلته القادمة (أتخيّلُ. يُلقي رأسهُ فوق صدري، / وكأنّي أُصغي إليهِ: / "من أبي؟ ما اسمهُ؟ " / هل أقول له: مات؟ موتي / أنّني / لم أمجّد كتاب الخطيئة. موتي / أنّني كفراشة ليل / ليس لي قوّةٌ لأُخطئ. أحنو/ وأضمّ جناحي على شمعةٍ: / خطأي شمعةٌ.)[34]

وتردّ ما حلَّ بهما لضعفها، وعدم استجابتها لنداء روحها للتحرّر، والانتماء لنار الرّفض والتّغيير، والعصيان، والتّحدّي، لنار الجسد والرّغبة، لنار الحبّ، التي لطالما نشدتها، وما إن غلّبت في داخلها تلك النار وقررت الاستجابة لها، متحدية كل القيود التي فُرضت عليها ، يأتيها قيد آخر، هو أقرب لكونه قيداً عاطفياً، من كونه قيداً مفروضاً من قبل الزوج، والمجتمع، والدين...الخ، لأن هذا الطفل كان ثمرة كبت، وشاهداً على قتل أنوثتها.

(.. ما أقولُ لطفلي؟ / هل أقولُ لطفلي / أنت منّي، ولكن / قلقي فيك أنّي أُحبُّ وأصبو / وأعشق جسمي وأهفو إلى عاشقٍ / يكون صديقاً / وتكونُ الصَّداقةُ مهدَ الأُبُوَّة_ سرَّ الأبوَّه / قلقي فيك أنَّ النبوَّه / لا تسافرُ في شرياني، في خلجاتي. / قلقي أنَّها لا تُلامس إلاّ زبد الجسم والنَّفس والكلمات / أنَّها تتذكَّر منّي ثوبي وتنسى حياتي./ (صمت) / هل أقول لطفلي / لم تجئ مثل شمسٍ / لم تجئ مثل نبعٍ؟ / جئت قيداً وشرعاً / هل أقول لطفلي / قتلتني فيك الدُّروبُ إلى شهواتي؟/ (صمت))[35]

إنها امرأة تتنكّر لهذه الأبوّة، وترفض أن تعترف بها،ما لم تكن حصيلة حب، ولعل الأبوّة هنا تتجاوز معناها المتعلّق بالأبناء، لتتخذ معنى أعمق وأشمل يتعلّق بالثقافة الدينيّة، والمجتمعيّة، والسلطويّة، البطريركيّة، التي عززت العقليّة التقليديّة والسلفيّة، الذكوريّة،(...دمهُ حُبّهم والزّمان على وجههم وعلى وجهه خريفٌ..)[36]، إنّه يتوارث هذه العقليّة كما توارثها أجداده، عقليّة ثابتة ومتحجرة، تمجّد الأموات وتقتل الأحياء، تلك العقليّة التي ألغت الحضور الكامل للمرأة، محوّلة هذا الكيان الإنساني إلى كيان ناقص، مسلوب الإرادة. وما عدم اعترافها بهذه الأبوة المفروضة، إلا رفضاً لكل ما عمل ولا يزال على تكريسها، كمنظومة سلطويّة تسيطر على هذه العقول المسكونة بالسّماء، كما نقلتها ووصفتها كتب التاريخ، حيث كان جزءاً كبيراً من دور المرأة في هذه القصيدة التشكيك والرفض لما جاء في هذه الكتب، فها هي تقول: (.. ويقال هبطنا_ هبط البيتُ مع آدمٍ: / تُراني أقول لطفلي: / لستَ من آدمٍ؟ / وأنا لا أُخاصمُ إلاَّ / من تبطَّن نفسي وتبطَّنتهُ_ خالقي وحبيبي.)[37]

---

[34] **المرجع السابق. ص43.**

[35] **أدونيس. تاريخ يتمزق في جسد امرأة. ص73-74**

[36] **المرجع السابق. ص107.**

[37] **المرجع السابق. ص108.**

يُقال: كلمة تحمل في معناها الكثير من التشكيك، أي أنّها أخبار منقولة ولا نعلم مدى صحتها، أو مدى اقترابها من الحقيقة، وهي بناء على ذلك ترفضها وتخاطر في نقل الحقيقة لابنها خلافاً لما جاء في الكتب، (لست من آدم؟) ترفض الأبوّة بمعناها الكلّي المسيطر، ولعلّ في ذلك أيضاً، عدم اعتراف بالرّواية الدينيّة. إنها تحاول أن تزرع بذرة الشك والتمرّد لدى ابنها، فعلى الرّغم من ظهور الطفل في هذه القصيدة كشخصية صامته إلا أنه لم يمثّل دوراً سلبياً بل حُمل الكثير من الدلالات وكان آخرها وأهمها محاولة الأم تحريره من الموروث الديني الذي كان سبباً بما حلّ بهما، ويأخذ الطفل بذلك دلالة مستقبلية، سعت المرأة إلى تكوينها بالحبّ، وتسليحها بالشك، ودعمها بالتمرّد، ليصبح بذلك_ إضافة لكونه جزءاً منها_ جزءاً من كينونتها المتمرّدة، وجزءاً من خطيئتها، وهذا ما يبرّر تلقيه المصير نفسه الذي واجهته أمه، فالمرأة (في قصيدة أدونيس، شخصيّة تراجيديّة بامتياز، تهوي من مقام رفيع، بسبب رغبتها في التمرّد على تاريخها و"تمزق" مكوّناته الأسطوريّة، حيث يحكم عليها بالرّجم، بصفتها رمزاً للغواية، يلفظها اليقين)[38].

وها هي بعد رحلة طويلة من العذاب والحرمان، تعلن انتماءها إلى الحبّ، وتمجد الجسد الحر، المتمثل بالطبيعة، فلم تعد تعترف إلا بهذا الحبّ الذي يوحدها مع التراب، ذلك الحبّ الذي يوحد الكون بتناقضاته، فيُظهر الليل والنهار في لحظة واحدة، وتلتقي السّماءُ الأرضَ في طقس حب كوني، بل طقس حب صوفي، يتوحدان فيه مع الغيب، في اللحظة التي تغيب فيه، ويغيب فيها، ويمتزجان حتى تزول كل الحواجز والمسافات ويصبحا كينونة واحدة، حتى كأنها جزء منه، بل لكأنّها هو، تعود لتسكن ضلعه، من ثمّ تخرج مرة أخرى بعد أن اكتشفت ذاتها، بتشكيل جديد، ابتكره لها حبّاً ونشوة وبهاء. إن فعل الحبّ هذا حوّلها إلى عذراء، بمعنى أنّه أعادها إلى الفعل البدئي الأول، التدشيني، أو فعل الخلق الأول، والعذريّة هنا تتجرّد من معناها الزمني، أو اللحظي، فهي عذراء من نعمة حبّها له.

(سأفيءُ إليك. تُراني أصبحتُ عذراءَ / من نعمة الحبّ فيكَ؟ أَفيءُ إليكَ، / وأهبطُ فيكَ إلى لا قرارٍ. / لا أحسُّ بنفسي، لا أحسّ بجسمي، / لا أحسّ بأنّيَ أحيا إذا لم أعانق / جسداً آخراً. / ولماذا، إذاً، لا أجاهرُ: كلاَّ. / لا أريد الحياة إذا لم تكن بدعةً / ولماذا، إذاً، لا أعيش كمثل الطبيعة، في لا مكانٍ / وأقول لمنفاي: أنت الوطن / أيُهذا الصديقُ العدوُّ الزّمن؟ / (صمت) / هكذا أيَّها الجسد الحبّ أسلمتُ صوتي إليك / أعطني، في طريقي إلى ذُروات جراحي يديك / عبدةً_ كنتُ أعرفُ ربّي عشيقاً وزوجاً. / زوجةً_ أعرفُ الآن فيه عبوديَّتي. / لم يعُد بيننا غير أشلائنا. / (صمت) / ...)[39]

إنّ هذا الحبّ قد حولها من امرأة حقيقيّة، إلى امرأة كونيّة، على أن المتعة وفقاً لذلك علاقة كونيّة. إنّها رحلة نحو المطلق عبر الجسد_الحبّ.

إنّها امرأة أعلنت رفضها للحياة إن لم تكن بدعة، وانتماءها للطبيعة، والبدعة هنا هي الخروج عن النسق الإيديولوجي، والديني، والاجتماعي، إنها رفض لثقافة الكتب والمجتمع السائدة، أمّا الطبيعة فهي الحرّيّة، هي الانفلات من القيود الزمانيّة والمكانيّة، هي الانفلات من التاريخ وأحكامه، والاستسلام للحب، الذي يُشعرها بوجودها، حيث تتلاشى بالآخر، وتصبح هي هو، وهو هي، يستحضران طقس الخلق البدئي الأوّل، في حضور يتفجّر بركانه من خلال الاتحاد الكليّ الكوني، هذا الاتحاد الذي يحقّق وجودها الفعلي، والحقيقي، الإنساني.

---

[38] د. اسماعيل، عابد. أدونيس عرّاف القصيدة العربية. سلسلة أعلام الأدب السوري، إصدارات الأمانة العامة لاحتفالية دمشق عاصمة الثقافة العربية، 2008، ص35.

[39] أدونيس. تاريخ يتمزق في جسد امرأة. ص37-38-40-41.

فبالحبّ وحده تعرّفت إلى ذاتها، وعلى الكون بظاهره وباطنه، واكتشفت أنوثتها، فالحبّ أحيا جسدها، وهو من جعلها امرأة. (جسدي خالقي، وحُبِّيَ خلاّقُه. / جسدي فتنتي، / جسدي نعمَتي./ ..... / صوتُ جُرحٍ يجيءُ ويمضي/ أتبدَّدُ فيه ويهربُ جسميَ منّي،/ فارمني وأصِبني بسهامِكَ يا حُبُّ،/ قل لي/ كيف تُستولدُ النَّارُ من شهوةٍ مُطفأه؟ / أعطِني أن أكون امرأه.)[40]

فهي لم تتخلّ يوماً عن إحساسها الفطري بذاتها، كأنثى، وهاهي تؤكد ارتباطها الدّائم بأرتميس الصيّادة العذراء الأبدية.[41] وبإيزيس التي مُثّلت بالعالم الروماني، ربّة للكون، ورمزاً للحب والإخلاص، ومنها اشتقت العرب اسماً لأصنامها (عزى)، وما تأكيدها على هذا الارتباط إلا تأكيداً على تمثلها لهذا الشغف المتأصل في ذاتها، منذ تكوينها الأول، وحضورها البدئي الذي تجاهله التاريخ، وشوّهه وأعاد تصنيعه كما شاء، إلا أنها احتفظت بوثنيتها، كمعطى يوحدها بالطبيعة، ويمثلها بها، ويحقّق لها حضورها الحسيّ والملموس، فارتباطها العضوي بالطبيعة، يحقّق ارتباطها الفطري بجسدها، حيث لا يكتمل وجودها إلا بإحساسها بهذا الجسد.

(من يقول تخلَّيتُ عن / أرتَميسَ وإيزيسَ؟ شمسي / منهما، بهما، فيهما. / من يقول: الطبيعة ضدِّي؟ الطبيعةُ مثلي. / نحن ثديان في جسدٍ واحدٍ.)[42]

إن هذه المرأة لا تمثّل ذاتها منفردة، بل تختصر أصوات كلّ النساء من قبلها، كلّ النساء اللواتي لقين المصير ذاته، من نفي وتهميش، وعذاب، ولم تتجدهنّ سماء ولا أرض، ولم تُسمع أصواتهن المتعالية. إنها مصر، مسقط رأس هاجر، الصوت الأنثوي الذي تجمّعت فيه الأصوات كلها، إنّها مصر التي لم تعترف هذه المرأة إلاّ بطبيعتها، التي بدورها شاركتها أحزانها، فتأصّل هذا الارتباط، وتعمّق، حتى اتخذت المرأة من إيزيس رمزاً يكثّف رغبتها بالحبّ والحرّيّة، والانعتاق من القيود، والانتماء إلى الطبيعة، بوصفها نموذجاً للخيار الحرّ، وللحضور المادي. وفي عودتها للأسطورة، وتمثلها بها، عودة إلى الوثنيّة، ربما للتدليل على عدم اعترافها بالنّصوص السماوية، هذه النّصوص التي لم تعترف، بدورها، بالمرأة ككيان إنساني كامل، وإنما تعاملت معها على أنها تابعة للرجل، فعاشت المرأة تُرقع الزمان، بحثاً عن لحظة حب شاردة، علّها تخلّصها من موت حُكم عليها. ولعلها أيضاً اختارت أن تتمثّل بالأسطورة، باعتبار أن الآلهة عندما تحب، وتمارس طقوس الغواية، والرّغبة، والشهوات، تتخذ من هذا الحبّ طريقاً للسمو، وتحقيق الاتحاد بين الذّات والكون، وهذا هو الحبّ الذي تطمح هذه المرأة لتحقيقة، فالوثنيّة التي تعترف بها هي وثنيّة صوفيّة، هذه الوثنيّة الصوفيّة التي ينتمي إليها أدونيس...

إنّها امرأة عانت، فتمرّدت، وكسرت قيودها، وأعلنت ثالوثها الخاص (الجسد_ الحبّ، الحرّيّة، الطبيعة)،

(حُكَّ ظهريَ، يا كوكب اللّيل، بالكلمات التي تتثاءبُ في/ شفتيَّ، أعنّي عليها (لم تزل تتقطّرُ وحياً) وخُذني / كي نعود لإيزيس في عُريها / ونخطَّ لغاتِ السّماء / بيدٍ حُرَّةٍ_ لغةِ الحبّ والشّعر والكيمياء./ أيُّها الكوكبُ الحميم / لا تنم، لا تنم، / قبل أن تتقبَّل ناري، وتصهَرَ جمريَ في جمركَ الكريم.)[43]

---

[40] المرجع السابق ص115-116.

[41] فهي بحسب الميثيولوجيا الإغريقية القديمة آلهة الصيد والبرية، حامية الأطفال، وآلهة الإنجاب، والعذرية والخصوبة، وهي أقدم وأقوى الآلهة الإغريقية، وهي تجسد وبيدها قوس وسهام، وأرتميس عندما بلغت 3 سنوات، طلبت من والدها زيوس أثناء جلوسها على ركبته أن يحقق لها ستة أمنيات كانت أمنيتها الأولى أن تبقى عذراء إلى الأبد، وأن لا تتقيد بالزواج على الإطلاق، كونه قيدا للمرأة.

[42] أدونيس. تاريخ يتمزق في جسد امرأة. ص91.

[43] المرجع السابق. ص119.

لقد حسمت أمرها، وقرّرت أن تكون الصوت الذي يعلو على صوت التاريخ، ليخترق السّماء، ويصوّرها كما يشاء، لا كما شاء هو، ورجالاته. واتخذت طريقاً واحداً لمعرفة الله، هو الحبّ، لأن الحبّ هو النّعمة التي تصفو بها الروح وترقى لمرتبة التوحد مع الذّات الإلهيّة. واستعانت بالشّعر، والكيمياء، فالشّعر طاقة رؤيوية، تقول العالم ظاهراً وباطناً، وتصوره مجازاً، لذلك فقد اعتمدت لغته المناقضة للوحي، باعتبارها لغة تقوم على التساؤل والشك، وتعتمد في تفسيرها على تعدديّة التأويل، أي لا تعتمد تأويلاً واحداً ووحيداً، بل تنفتح على تأويلات لا متناهيّة، وهنا أيضاً تناقض ما جاء به التاريخ باعتماده على قراءة واحدة، وعدّها الحاضنة الوحيدة للحقيقة الثابتة والنهائيّة.

أما الكيمياء فهي الانسجام التام بين عناصر الذكورة والأنوثة، بمعطياتهما الرّوحية والجسدية، ليتحقّق الاتحاد الكوني الذي تنشده المرأة، حبّاً.

إذا ما انتقلنا لقراءة شخصيّة **الرّجل** كما وردت في هذه القصيدة، لاحظنا أنها شخصيّة مسيّرة، فقد سيطرت عليها النّصوص السماويّة، وكوّنتها كما أرادت السّماء لها أن تكون، حيث نصّبت نفسها وصيّة على تلك التعاليم السماويّة، ممثلة السلطة الأخلاقيّة والدينيّة.

ويظهر الرّجل أسيراً للإيديولوجيا الدينية إذ يصوّره الشاعر في كل المقاطع وهو يقلّب كتاباً قديماً، يعبّر فيه الشاعر عن الثقافة التقليديّة، والتّراث الديني، وإذا ما كان هذا الكتاب يضم معارفَ ومعتقداتٍ وطقوساً وأخلاقاً..إلخ، فلابد من خضوعه للتطور التاريخي، فثقافة الكتاب هي ثقافة مكتسبة، زمنيّة، إلا أن وصف هذا الكتاب بالقديم هو تعبير عن ثقافة الأسلاف، تلك الثقافة التي استلبت المرأة، كاستلابها للفكر العربي ككل. إلا أنّ الرّجل يظهر حائراً في بعض اللحظات، يتأرجح بين العقل، وسيطرة النّقل عليه، فإذا ما أعمل عقله تراءى له تاريخاً قائماً على العنف والقتل، يمتدّ إلى الحاضر ويسيطر عليه، إنّه الثبات الذي جمّد عقولنا. وعلى الرّغم من ذلك لا يجد نفسه إلا وقد أعاد الكتاب إلى يديه، في دلالة على عجزه عن الاستغناء عنه، حيث شكّل الكتاب، مع ما سمّاهم بالأسلاف، المرجعيّة التي تملّكت عقله وحياته، ونحن نعلم أنّ كلّ تبني لمرجعيّة ثابتة هو دليل على موت الفكر والعقل والإبداع.

(تلكَ أشباحُ أسلافِنا. للقبائِلِ أمجادُها ورواياتُها. / ألدروبُ إليها رؤوسٌ / تتكدّسُ. كلاّ، / لا أقولُ المذابحُ مثلُ الموائدِ، لكن / كُلّ شيءٍ هُنا / تحتَ هذي السّماء / نائمٌ، جامدٌ. / (يخلع نعليه. يقلب كتابا قديما) / أول الأنبياء نسيتُ اسمهُ. / ألصَّلاةُ على آخِرِ الأنبياء./ (يتابع تقليب الكتاب))[44]

في المشهد الوحيد الذي يظهر فيه الرّجل، لا يقلب الكتاب، يصوّره الشاعر وقد نزع سترته، يمشي جيئة وذهاباً، وكأنّه يدلّل بنزع السترة، على الكشف عن المستور، ليقف في حيرة أمام أفكاره العارية من غطاء الموروث، حيث انكشفت له حضارة قديمة، لم تعترف بها حضارة السّماء، بل همّشتها، لتطغى هذه السّماء على الأرض، وتسيطر عليها، فأضحت حضارة البداية والنهاية، وها هو يشهد على دمار هذه الحضارة، التي لم يبق فيها معلم من معالم الحياة إلا النساء، فهم الخَضار الوحيد في زمن الموت واليباس.

((ينزع سترته. يمشي جيئة وذهاباً) / أرضُ كنعان ثوبٌ / يتمزَّق بين يدي ربّهِ. / (صمت)/ مُدنٌ تتشظّى_ مُدُنٌ ميتةٌ/غير أنَّ النساء رياحينها./ أترصّدُ أحزانهنَّ، وأمنحُ جسمي إلى كلّ حُزنٍ./ حزنُهنّ فِراشٌ أمينٌ./ (صمت))[45]

إنّه يدرك أنّ المرأة تعيش في شتات، نتيجة للشرخ، الذي حكموها به، بين جسدها وروحها، إنّها امرأة كُوّنت أنوثتها من كلمات، وجعلوا من جسدها وسيلة لإرضاء رغبات الرّجل، وأداة للإنجاب، فما كانت هذه الصورة التي

---

[44] أدونيس. تاريخ يتمزق في جسد امرأة. ص19.

[45] المرجع السابق. ص45.

وصّفوها بها إلا أن شوّهت معنى وجودها الحقيقي، وهذا الانتقاص بالمعنى أحدث خللاً في التوازن بين ظاهر الأمور وباطنها، هذا التوازن الضروري لخلق الانسجام الطبيعيّ والفطريّ، بين الروح والجسد.

(أتُراها لا تزالُ، كما صُوِّرت/ أم تُراها اثنتان_ / جسمُها واسمُها؟ / جسمُها في مكانٍ / واسمُها يتَرَنَّحُ في لا مكان./والأنوثةُ فيها_ تُراها / لم تعُد غير لفظٍ_ جسداً من كلامٍ، وجنساً / يتنقّل في مُعجم الوحي من آيةٍ إلى آيةٍ.)[46]

يعيش الرّجل في تناقض دائم بين رضوخه لأحكام السّماء، وبين رغبته الحذرة بالخروج عن هذا النسق التقليدي، الذي أضحى عبداً له، ولوصاياه، ويتساءل إن كانت هذه المرأة التي تبحث عن الحبّ، وعن الرّجل الحر، تجد فيه سَكنها وسُكناها، سؤال مفتوح، يحمل في داخله استنكاراً مبطناً يفضي إلى الجواب، وإن كان قد استدرك السؤال، باعترافه بأنه لم يستطع أن يتحرّر من قيود الماضي، ولا من تمثّله بانقياديّة هابيل السماويّة، حيث لم يحافظ على طبيعته الفطريّة، ولم يعمل على تحكيم عقله، فما كان بذلك إلا أن جعل منه الملجأ الذي يخفي للمرأة موتها.

(هذه امرأةٌ / تعشقُ الحُرَّ، لكن / هل تفيءُ إلى العبدِ في نومِها؟ / تِلْ هابيلَ: لا فطرةٌ رعتهُ، ولا حِكمةٌ أنقذَتهُ / بيتُها موتُها. / أيُّهذا اللَّقيطُ الذي يتنكَّرُ، جاهر: / أتُرى هاجرٌ أصلُنا؟)[47]

وفي وسط ضياعه هذا، يعلو صوت اللاوعي في داخله، ليستفز صمته، بتساؤلات مصيريّة ولا نهائيّة، تشجعه على حسم خياراته، حيث تبطنت الإجابة دواخل هذه التساؤلات، وكأنّها اعتراف ضمنيّ بأن المرأة هي الأصل.

يتابع الرّجل في تقليب كتابه، ويوّصف بهذه المرأة، ليخفي في المقطع السابق واللاحق، حيرته، وتردده، وخوفه من الانسياق وراء أفكاره الخفيّة، ولا وعيّه، ورغبته الضمنيّة بالتمرّد، والخلاص من عبوديته، والاحتكام لعقله، وإحساسه الفطري، إلا أنّه ولأسباب لا يصرّح بها، يستبقي الكتاب بين يديه، مؤكداً على استبقائه كمرجعيّة لم يتمكن من الاستغناء عنها، وفي توصيفه الأخير للمرأة يؤكد على انتمائها للطبيعة، وبأنّ الجسد طريق لمعرفة الغيب، إنّها النشوة التي لم تعترف بها الكتب السماويّة، إنّه الاتحاد عشقاً لحد التلاشي الكلي.

(هذه امرأةٌ تعشقُ الأرض_ ملموسَها ومحسوسَها، وتقولُ: الجسَد / ليس إلاَّ جلاءً / لِخفاءِ الأبد. / إنّها سكرةٌ / لا ترى في كتاب الألوهة إلاَّ / ورقاً_ أمّةً / حشدَ كَرٍّ وفَرٍّ / يتبدَّدُ في لا أحَد.) [48]

لعله نقل في هذا المقطع اعترافاً ضمنيّاً بأن هذا الكتاب الذي يحمله بين يديه، ويوجّه حياته، قد جعل من المرأة جارية، لم يعترف برغباتها، وشيّأها حتى كاد أن يلغي وجودها الحق، وعلى الرّغم من اعترافه هذا، بقي الرّجل حائراً بين سماء وأرض، وبين سلطته الذكوريّة ورغباته الإنسانيّة، وبين الانسياق لما قاله أسلافه وتطلعاته للتغيير وكسر القيود. وإلى الآن لم يحسم أمره.

لم يكن لصوت الرّجل في هذه القصيدة حضور يوازي حضور المرأة، بل أتى خجولاً، مرتبكاً بين بقيّة الأصوات، يختزل حضوره بتقليبه للكتاب، بينما نجد الجوقة الصوت الموازي للمرأة في حضوره، وإذا كانت المرأة الصورة التي اختصر الشاعر من خلالها التاريخ العربي، الذي يطوّق الواقع ويخنقه بقيوده العديدة، ومن ثم يعكس تمرّدها على هذا الواقع وخروجها عن نسقه التقليدي، فإن الجوقة قد ساندتها في تمرّدها هذا لتمثّل الضمير الجمعي، أو لنقل كانت صوت العقل الذي واجه ثقافة النّقل والاتباع، إنه صوت الحكمة، ولعل هذا الصوت هو صوت متعدد يحمل وجدان المجتمع والإنسانيّة والتاريخ، ويتبنّى قضية المرأة، ويبحث عن مخرج لكسر قيودها، فحيناً نرى صوت الجوقة هذا،

---

[46] أدونيس. تاريخ يتمزق في جسد امرأة. ص66

[47] المرجع السابق ص76.

[48] المرجع السابق. ص117.

يطلق أحكاماً ويعمم الرُّؤى، وفي حين آخر يطرح تساؤلات فلسفيّة وميتافيزيقيّة، تخترق المستور، أو المسكوت عنه، إنه صوت يتبنّى فكرة أن يكون الشاعر نظيراً للنبي، ويعطيه صفة المخلص، ولعلّ هذا الصوت المحمّل بالأسئلة الكونيّة والمصيّرية، يتقاطع مع مفهوم الشّعر الرؤيويّ الذي يعتمد السؤال أداة لغزو الغيب وتفكيك مجاهيله، كل ذلك يفضي بنا لتأكيد التعدّد الصوتي الذي رافق هذه الجوقة.

تبدأ الجوقة بمناقضة ما قيل، وإثارة الاستفهامات حوله (" لايموت سوى الحيِّ "، قالوا. / فلماذا، إذاً، لا يُقالُ: " الألوهةُ ليست حياةً ". / و " غداً يُذبحُ الموتُ " قالوا: / فمتى يُذبحُ الموتُ، في أيّ وقتٍ، وأيّ مكانٍ؟)[49]

إنها تساؤلات مفتوحة، وعلى مستوى الكون، ألحقها بالصمت، ربّما للتدليل على عجزهم عن الإجابة، أو للتدليل على أنّ الحقيقة لا متناهيّة كهذه الأسئلة التي لا تؤدي بنا إلى جواب محدّد بل تحرّض في داخلنا الشك، وتفكّك الحقائق الثابتة والنهائيّة التي نقلوها لنا كيقين مطلق، وربّما تستبطن هذه التساؤلات شيئاً من الاستهزاء بهذه الحقائق، حيث لا تلبث هذه الجوقة أن تعلن رفضها لما جاء نقلاً عن هذا التاريخ، وتدعو للتمرّد على السّماء، السّماء كما تراءت للأسلاف، هذه الرُّؤيا الناقصة، التي غيّبت المرأة، إنّها سماء لم تعترف برغبات الجسد، وبالمقابل فإن هذا الجسد لا ينتمي إلى السّماء بل إلى الأرض والطبيعة، لذلك لا يدق بابها، ولا يدخل في رحابها. (أقفلوا باب تلك السّماء على أهلها، أقفلوا: / جسدٌ سيّدٌ / جسدٌ طيّبٌ كريمٌ / لا يدقُّ على باب تلك السّماء، ولا يدخلُ.)[50] . إنّه الحبّ، ذلك المقدّس الملعون، من باركته الأرض، ولعنته السّماء، إنّه المحظور باعتباره يجرّ وراءه الخطيئة والغواية، وينشد الحرّيّة سبيلاً لمعرفة السّماء، المعرفة التي استحوذ عليها الأسلاف، وباركوا كمالها وثباتها، ونصّبوا أنفسهم أوصياء عليها.

تعود الجوقة لتأخذ دور الضمير الجمعي، الذي تتعالى أصواته تساؤلاً حول جدوى الوجود وماهيته، أسئلة كونيّة ميتافيزيقيّة، تتشحط مشلولة أمام ثبات الأجوبة ونهائيّتها، وهنا تشكيك بالقيم التي تأسس عليها الدين، والفكر الماضوي، الذي كرّس الدين لخدمة السلطة بكافة مجالاتها، وما إن تأتي رياح التّغيير لتخلخل جمود هذا الفكر، حتى تتصدى لها ظلامية السكون، والاجترار.

(أرضُها جرحُها. تتنهَّد: لا ملجأٌ، ولا مخرجٌ. / ولماذا؟ وما الخيرُ؟ ما الشَّرّ؟ ما الأبديّة؟ ما هذه / الكلمات التي تتشحّطُ مشلولةً؟ / ما لتلك الرّياح التي يستضيءُ الرّحيل بنيرانها / مُطفأه؟ / هجرةٌ لا قرارٌ لها / والطّريق امرأه.)[51]

لا مستقر لهذا الضياع، إذا لم نتعامل مع المرأة كإنسان، يملك مفتاح الوجود والحياة، فالبداية تكون بتحريرها من هذا النّفي والإقصاء.

إنها تنفي التعاليم الدينيّة بأكملها، وتبارك التمرّد عليها، لا بل لا تكتفي بذلك بل تدعو للوثنيّة التي آمنت بألوهيّة المرأة، (مناة، واللات والعزة، آلهة عبدها العرب قبل الإسلام، أي شكلت ثالوثاً أنثوياً عبده العرب)، وما دعوة الجوقة للوثنيّة إلا للتمثّل بدور المرأة ومكانتها، ذاك الدور الذي لم تعترف به الديانات السماويّة.

(أرضُ نفيٍ. صلاةٌ / أن يكون الخراب نبيّاً، / أن تكونَ الحجارةُ مرثيةً لخُطاهُ / ورُجوماً لشياطينه./ أرضُ نفيٍ_ نحيّي مناةَ / ونُحيّي / وجهَ عُزّاكِ، ياهذه الصّحارى. / وننُاديك: يا لاتُ أنتِ الأُنوثةُ. شعرٌ/ أن تكون السّماء سريراً وأُنثى.)[52]

---

[49] أدونيس. تاريخ يتمزق في جسد امرأة. ص12.

[50] المرجع السابق. ص14.

[51] المرجع السابق. ص44.

[52] أدونيس. تاريخ يتمزق في جسد امرأة. ص47.

إنها دعوة للتحرّر من التابو الديني، والتمرّد على اللاهوت، إنها دعوة إلى الحبّ لا الإكراه، إلى الحرّيّة لا الأسر، إلى الأنوثة بكيانها الكليّ، القادر على توحيدك مع الكون وكشف أسراره.

إن شجرة التمرّد التي زرعتها المرأة في داخلها، كبرت وتعاظمت ولكن ما لبثت أن تساقطت أوراقها، ما إن تراءى لها الغيب، هذا الغيب الذي اقتحمته، وبحثت فيه عن خلاصها فما وجدت فيه إلا أوهامها.

(إنَّها توقظُ الطِّفلَ من نومهِ: / ألخيالُ المُنوَّرُ يرسُمُ في ناظريها / أفُقاً يتقدَّمُ في بابِ غيبٍ/ خلعَت قُفلهُ / دخلت. قَلَّبَت / لم تجد غير أوهامها. / إنها تُرضعُ الطِّفلَ أوهامها.)[53]

هذا الطفل هو بذرة المستقبل التي زرعتها في داخلها، وسقتها من مائها المتمرّد، فواجه المصير نفسه الذي واجهته أمه، باعتباره جزءاً منها، ومن خطيئتها، وشريكاً لها في أوهامها، في مجتمع اعتاد أن يتحرك في مدار واحد، وكل اختراق أو تجاوز لهذا المدار، يقابل بالرفض، وهذا ما نجده في نهاية هذه السيرة، حيث تحتشد الناس وتحكم عليها وعلى ابنها بالقتل رجماً بالحجارة، ويكون التعليق الأخير للجوقة، أن هذه المرأة وابنها أسيرا الكتاب، هذا الكتاب الذي ضمَّ البداية والنهاية، فهم محكومون بالفكر الديني المسيطر على العقول، هذا الفكر الذي اختصر الأزمنة في زمن واحد، وأعلن الحرب على كل من تمرّد عليه، أو رفضه، أو سعى لتجديده، إنه تاريخ قمعي، بُني على العنف.

(إنّها وابنُها / أسيران في ظُلُماتٍ، بداياتها لفظةٌ، / ونهاياتُها لفظةٌ. / يقرأ الطالعونَ من الوحيِ ما يَتَيَسَّر منها: / زمنٌ بائرٌ ودمٌ نافُر. / إهدِهِمِ إهدهِمِ أيُّها الشَّاعرُ.)[54]

إن هذا الضلال الفكري، والظلام التاريخي، لا يمكن استداركه، أو تجاوزه إلا شعرياً، فالشاعر كالنبي إلا أنه لا يأتي بوحي سماوي بل يأتي بنبوّة الرّفض والتجديد، وقراءة التاريخ شعرّياً، قراءة متحررة من القيود، ومن حكم السّماء، إنه الهادي الذي تستجير به الجوقة، إيماناً منها أن الحكمة والحقيقة تأتي من أفواه الشّعراء.

الخاتمة:

إنها قصيدة صورت جانباً من التاريخ العربي متمثلاً بالمرأة، إلا أنه يعكس التاريخ بأكمله، والفكر الذي حكم هذا التاريخ وما يزال يحكمنا حتى الآن.

لقد وجد في المرأة ، ومن خلالها، مدخلاً لخلخلة المسكوت عنه، وسبباً من أسباب تأزم واغتراب الواقع العربي، فها هو يعيش في اغتراب مزدوج، اغتراب داخلي، بين نفسه والموروث الديني، بين رغبات الجسد وقيوده المتوارثة، بين الحرّيّة والسجن الفكري، بين حياته اللحظيّة وعيشه في الماضي. إنه يعيش في ثنائيّة الروح/ الجسد، السّماء/ الأرض، الخرافة/ العقل، واغتراب خارجي، يتعلق بقبول الآخر ورفضه في الوقت نفسه.

ودخل عالم المرأة المغيّب عبر التاريخ، من خلال الجسد، الذي ترفض المرأة في هذه القصيدة أن يُختصر وجودها به، وبنفس الوقت تدعو إلى حرّيته وحرّية رغباتها، إلا أن هذه الحرّيّة مقرونة بحرية العقل والفكر، وتعلن الحبّ عنواناً للحياة، وطريقاً لمعرفة الله.

تاريخ يتمزق في جسد امرأة... قصيدة تتقاطع مع التراجيديات اليونانيّة، بنهايتها المأساوية، حُكم على المرأة وطفلها بالقتل، في الوقت الذي بُنيت فيه هذه القصيدة لقتل الأب، وإسقاط النظام البطريركي، القائم على السلطة

[53] **المرجع السابق ص75.**

[54] **المرجع السابق. ص128.**

الذكوريّة، وقتل فكرة الرب القائمة على الإكراه، وإحياء الألوهة المبنيّة على الحرّيّة والحبّ، والاعتراف بأن الأنوثة هي الطريق لإحيائها.

المصادر والمراجع:

1-القرآن الكريم

2-أدونيس (علي أحمد سعيد إسبر). تاريخ يتمزق في جسد امرأة. الطبعة الأولى. دار الساقي، 2007.

3-المحيط الأسود. الطبعة الأولى. دار الساقي، 2005.

4-اسماعيل، عابد. أدونيس عرّاف القصيدة العربية. سلسلة أعلام الأدب السوري، إصدارات الأمانة العامة لاحتفالية دمشق عاصمة الثقافة العربية، 2008.

5-بلعابد، عبد الحق. عتبات (ج جينيت) من النص إلى المناص. تقديم: د. سعيد يقطين، الطبعة الأولى. الدار العربية للعلوم ناشرون، منشوات الاختلاف، 2008.

6-حسين، خالد حسين. في نظرية العنوان/ مغامرة تأويلية في شؤون العتبة النّصية. التكوين، 2007.

7-خمري، حسين. الظاهرة الشعريّة/ الحضور والغياب. اتحاد الكتاب العرب، 2001.